المؤمن والدهريّة، الجزء الثالِث

بقلم المتروبوليت سابا (اسبر)

نظراً للتحدّيات، المســـتجدّة والمتلاحقة باســـتمرار، التي تطرحها الدهريّة على الإيمان بعامّة، والمســيحيّ بخاصّــة، في مجتمع الحداثة، الذي بات يُســمّى "ما بعد الحداثة"، فإنّ المؤمنين يختلفون في طرق مواجهتها. ولا عجب في ذلك فالكثير من هذه التحدّيات جديد بالكليّة، ولم تختبره الكنيسة سابقاً.

فقد كان الناس، حتّى زمن قريب، يعيشـــون في مجتمع دينيّ، ولو لم يكن جميع الناس مؤمنين، إلا أنّهم كانوا يولدون في مناخ اجتماعيّ مطبوع بالعادات والتقاليد والقيَم الدينيّة. بينما يغيب الطابع الدينيّ عن المجتمع المعاصر، ويُســـتبدَل بآخر، دهريّ، دنيويّ، مطبوع باختبارات الإنسان، وخبراته، وتجاربه الحلوة والمرّة.

وقد بدأ هذا التغيّر يتســـارع جدّاً، في كلّ العالم، في العقدين الماضـــيين، وإنْ تفاوتت درجات تسارعه بين مجتمع وآخر، إلا أنّه صار يطال جميع المجتمعات. فباتت الهيئات الدينيّة أمام تحدّ حقيقيّ، لم تواجهه سابقاً بمثل هذه الحدّة. لذا فمن الطبيعيّ أن تتعدّد الآراء والخبرات في طرق التعاطي معه، وفي قضـــايا حفظ الإيمان ونقله إلى الإنســـان المعاصر، كما وفي لغة البشـــارة، وتجســـيد المبادئ المســـيحيّة في عالم اليوم. ما أنتج تيارات متنوّعة، يمكننا جعلها في اثنين، إذا ما لاحظنا في كليهما درجات مختلفة من التشدّد واللين.

****

التيار الأول يقاطع ما ينتجه هذا العالم من أمور مغايرة لِما اعتاد الناس عليه في الماضي. فيصير، عنده، كلّ جديد موضع شكّ، وكلّ ابتكارٍ مثيراً للخوف، وكلّ نمطِ تواصلٍ غير مألوف شـــيطانيّاً، ودرباً إلى التخلّي عن اســـتقامة الإيمان. الجدير بالذكر، أنّ أتباع هذا التيار لا يقاطعون استعمال الأدوات التكنولوجيّة، بل يرفضون الجديد الذي تنتجه هذه الأدوات، من سبل تقارب، على صعيد التواصل والتلاقي بين المجموعات البشريّة.

فهم يرفضـــون الحوار لأنّهم يتلمّســـون وراء هيئاته أهدافاً خطرة على الكنيســـة والإيمان المستقيم. فيرمون بالتقارب، جملة وتفصيلاً، بدلاً من أن يقاطعوا الهيئة التي يتلمّسون

الخطر منها! ويرون في كلّ تعاطٍ مع الآخر مشروع هرطقة ناشئة، وتخليّاً عن الإيمان المستقيم.

يحصرون الإيمان في الأشكال التي أنتجها فعل الروح القدس في الأقدمين، ويحرصون على سجنه ضمنها، ويحظّرون عليه إنتاج تعابير جديدة. لا يقدّرون مدى التغيّر الذي طرأ، بسبب الدهريّة والحداثة، على الإنسان المعاصر. لا يرون في تحدّيات الإيمان المتكاثرة ميدانَ شهادة لهم، عبر انخراطهم فيها. هم هانئون بما عندهم من حقيقة. ومن أراد فليأتِ وينظر.

يتخاطبون بلغة يفهمونها هم، وقد لا تعني شيئاً للآخرين، إنْ لم تعنِ مفاهيم مشوهّة للإيمان. لا يريدون منازلة التحدّي ومواجهته. ولا يقبلون استعمال الثقافة الحديثة، ولغة اليوم في البشارة. يحرّكهم الجزع الدائم على دوام صفاء الإيمان، أكثر ممّا يدفعهم إلى مواجهة التحدّيات الإيمانيّة، المتراكمة والمتسارعة.

فيصيرون، في أحسن الأحوال، كمن يحمل الماء البارد، وينتظر العطشان ليأتي إليه. فهم لا يطالبون أنفسهم بالذهاب إليه. إنّهم أشبه بمن يحتمي، مطمئناً، ببناء متين مضادّ للعواصف، ولا يكترث لمن يواجهون الأعاصير في بيوتهم المتداعية. في أحسن الأحوال، هو على استعداد لاستقبالهم، إن طرقوا بابه.

****

أمّا أنصار التيار الثاني، فمسحورون بالحداثة وبما تنتجه. يتبّنون كلّ ما تقدّمه، دونما حرص أو تمييز. ينخرطون، بإيجابيّة وزخم، في الحوار، أيّاً يكن، وأنّى وُجد، ويُقبِلون، بإعجاب، على الأفكار والأنماط والفلسفات الجديدة، ولو كانت مضادّة لإنجيلهم. يريدون مصالحة العالم مع الإنجيل بسهولة، وغالباً بسطحيّة.

لا يميّزون بين روح العالم وروح الإنجيل. يسارعون إلى التوافقيّة، في أيّ نقاش أو حوار. يستسهلون تفسير النصوص الإنجيليّة بما يتوافق وأفكارهم. هم متأثرون بأنماط الحياة السائدة، ويريدون، بنيّة طيّبة، إنّما ساذجة، إسباغ لبوس مسيحيّ عليها.

قد تكون دوافعهم نقيّة، وقد يكون كثيرون منهم صادقين في مساعيهم، ونيّاتهم لا زغل فيها. لكنّهم مأخوذون، أكثر من اللازم، ببريق الحداثة، وبما تنتجه، وترسّخه في الأذهان والنفوس، ويرغبون في تحديث الإيمان بها، ظانّين أنّهم "يؤنجلونها" بذلك. ولا عَجَبَ، إذا ما وُجد كثيرون منهم متأثرون بالثقافة السائدة أكثر من ثقافة إيمانهم.

****

تجد في كلا التيارين، من يتمادى ويتصلّب، في هذا الخطّ أو ذاك، بردّة فعل عنيفة تجاه أتباع التيار الآخر. وقد يصل الصدام، بين الفريقين، إلى حدّ خطِر يهدّد وحدة الكنيسة، ويبثّ روح الكراهية والبغضاء في ما بين أبنائها. ولعلّ أخطر ما في الفريقين أنّهما، كلاً بدوره، يجنح إلى التطرّف في مواقفه، المبنيّة على قناعات، أكثر ممّا هي مبنيّة على المحبّة، المصليّة والدامعة، لهفةً على خلاص الطرف الآخر.

وأيضاً بناء على زخم، صادق ربّما، إنّما تحرّكه الانفعاليّة، لا روح الرب الهادئ، الذي ينير ويرسم الطريق المستقيم ويُلهِم إليه. يمنعهم تشدّدهم من التلاقي والحوار، في جوّ الصلاة والسلام والمحبّة، المستمد من التماسهم، سوياً، لحضور الروح القدس في وسطهم. ويُفتَقَد التواضع، النابع من الفرح بلقيا الأخ، "الذي مات المسيح لأجله"، أيّاً كان موقفه.

كما إنّ الاتهامات المتبادَلة بين الفريقين، كثيراً ما تتخّذ نبرة حادّة وقاسية، وصفات مطلَقَة على شاكلة: هرطوقيّ، أصوليّ، ليبرالي، غير مستقيم، متزمّت، مخرِّب... ممّا يخلق جوّاً من انعدام القدرة على الوصول إلى توضيح وجهات نظر بعضهم تجاه بعضهم الآخر. فلا يرى المؤمنون العاديّون، في الأجواء الكنسيّة، سوى عراك، وهجوم، وانتقاد، واتّهام، وصخب، وتشويش، حتى ليكاد الكثيرون منهم يعجزون عن فهم ما يحصل.

يحرّك الخوف على الإيمان أتباع التيّار الأول، إلى درجةٍ، قد ينسون، فيها، أنّ الله حاضر، في وسط كنيسته، فيتبنّون دور الشرطي المدافِع عن حقّ الله، ولو غيّبوا الله نفسه مستبدلين إياه بأنفسهم! أمّا أتباع التيّار الثاني، فيحرّكهم التأثر بأفكار هذا الدهر، حتّى ليكادوا يعتقدون بأنّ الإنجيل ناقص، ويحتاج إلى أن يكتمل، بما توصلت إليه الحضارة البشريّة.

تبقى حياة الصـلاة الهدوئيّة المولّدة للمحبّة، مفقودةً، في كلا الجهتين، ومن دونها ما من رؤية صافية ونقيّة. لنتذكّر بأنّ الله ما كلّم النبيّ إيليا، لا من النار، ولا من العاصفة، وإنّما من النسـيم الرقيق. لنفسـح المجال لربّ الكنيسـة، لكي يعبّر عن ذاته، ولا نحجبّنه بغيرة مزيّفة، غالباً ما تكون نابعة من أهوائنا، لا من نقاوتنا.

إنّ الجهود الهائلة، التي بُذلت في سـبيل انعقاد المجمع الكبير انتهت إلى لا نجاح، فبدأ الكثيرون يسـمّونه مجمع كريت. لكن ما حدث، كشـف مدى جديّة الهوّة، القائمة في قلب الكنائس، ما بين التيارين الآنفي الذكر. إنّها العقليّة الدهريّة، التي تجعل بعضـهم ينغلق حتّى درجة الموت، وبعضهم ينفتح حتّى درجة خسارة الهويّة!!

كان أوليفييه كليمان يدعو، أرثوذكسـيّاً، إلى "ضرورة أن يطابق فعلنا قولنا، وأن نحرّره من كلّ ما يتّسـم بعداوة الآخرين، وأن نطلق العنان للروح القدس، ليفعل في التاريخ، ويعيد إليه إمكان الانفتاح والإبداع."

من له أذنان للسمع فليسمع!